احياء لذكرى

اغناطيوس كراتشكوفسكي

١٨٨٣ - ١٩٥١

بقلم الاب يوحنا مصريان اليسوعي

وصلنا مؤخرًا النبأ الموجع بوفاة اغناطيوس جوليانوفتش كراتشكوفسكي الذي كان من اكبر المستشرقين واوسعهم انتاجاً ونشراً بالروسية لما يتعلق بالادب العربي وخصوصاً الادب العربي المصري وبتاريخ الدروس العربية في روسيا .

وُلد في « ڤيلنو » في ١٦ اذار سنة ١٨٨٣ وانهى دروسه في مسقط رأسه ثم التحق سنة ١٩٠١ بمعهد اللغات الشرقية في جامعة بطرسبرج وظل فيها حتى سنة ١٩٠٥ . وهناك تتلمذ على يد علماء روسيين ماهرين نظير ميدنيكوف (Miednikov) ، وشميد ، (Schmidt) ، وبرتولد (Bartold) م ، وكثيرين غيرهم خصوصاً البارون روزن (Rosen) ، الذي سمّاه في احد مؤلفاته « مؤسس المدرسة الجديدة للدروس الشرقية في روسيا » قبل الثورة السوفياتية . وتحت ارشاد هذا العالم الكبير ، سيتابع كراتشكوفسكي دروسه وابحاثه حتى تموز سنة ١٩٠٨ ، حيث انتدب للذهاب الى الشرق في بعثة علمية للاطلاع عن كثب على اللهجات العربية الحية وعلى الادب العربي وثقافته وخصوصاً للاتصال بتعليم الادب العربي الذي باشر به معهد الآداب الشرقية في جامعة القديس يوسف في بيروت والاتصال ايضاً بالحركة العلمية في المعهد المذكور .

ونرى كراتشكوفسكي في بيروت منذ تموز سنة ١٩٠٨ حتى تموز سنة ١٩١٠ يتبع دروس تاريخ الادب العربي التي كان يلقيها الاب لويس شيخو وتاريخ محمد بواسطة الاب هنري لامنس . يدرس اللهجات العربية

على الأب لويس رونزفال (Ronzevalle) والجواني على الأب بولس جوون (Jouon) ، ويصحح اغلاط الطبع في ديوان الاخطل وهكذا يساهم مع الأب صالحاني في نشر ديوان الشاعر .

وسيحفظ كراتشكوفسكي حتى آخر حياته ورغم كل الصعوبات السياسية تذكاراً وفياً لاساتذته في جامعة بيروت وسيبقى على اتصال بالجامعة المذكورة ويسر ، في مزاقاته ، بان يمدح اساتذته القدماء. كما تشهد بعض مقاطع من كتبه التي سنتكلم عنها بعد قليل .

ويغتنم كراتشكوفسكي فرصة إقامته في الشرق ليزور لبنان وسوريا وفلسطين ومصر ، ثم يصبح احد اعضاء لجنة المجتمع الروسي المسمى الفلسطيني التي كانت تعضد وتزمن مدارس الشرق الادنى التي أسسها وجاد عليها القياصرة بمالهم وعنايتهم.

هذه الاقامة والرحلات في الشرق أفادت كراتشكوفسكي معرفة كاملة للعالم العربي وجعلته واحداً من المستشرقين الروس الأكفاء — وتشهد بذلك قصة احد مساحي الاحذية المصريين ، وقد اخبرها كراتشكوفسكي ذاته : فبعد ان حاول ان يزور مكتبة تيمور باشا وكان عندا غائباً اذاك ، وقف في احدى المحطات من ضواحي القاهرة ، ينتظر وصول السكة الحديدية ، فاخذ يتحدث الى احد مساحي الاحذية واظهر له الأسف على تركه مصر الى روسيا دون ان يتمكن من مشاهدة مكتبة الباشا : « علي ان ارجع الى بيتي في روسيا ، لانني روسي.» فضحك المساح المشعوذ واجاب : « انت لست فرنجي ولا مصري ، انت سوري . عرفت هذا من لهجتك . . . مع السلامة وسنلتقي في الشام.» وما اخفى كراتشكوفسكي السرور الذي شعر به لدى سماعه حكم المشعوذ المصري على معرفته بالعربية.

نال كراتشكوفسكي الاعجاب عندما قدم اطروحته في ٣٠ ايار سنة ١٩١٥ ، وتنقل بعد ذاك من مهنة التعليم في جامعة بطرسبرج الى مقاعد

التدريس في المعاهد الشرقية المختلفة ثم عُيّن عضواً في اكاديمية العلوم وفي الشركات العلمية للاتحاد السوفياتي الذي انتدبه مرات الى بعثات في جامعات الاتحاد السوفياتي نفسه .

وقد واصل النشر منذ سنة ١٩٠٤ حتى وفاته دون انقطاع . وقد نشر فهرست كتبه في طبعة جديدة سنة ١٩٤٩ وكان يحمل ٤٣٤ اسماً لمؤلَّف وذكرت فيه مؤلفاته الاخيرة المتعلقة بالرُّقم العربية وقد ظهرت بالروسية في المجلة السنوية المدعوة : « الرقيم الشرقي » ، تلك التي تديرها زوجة كراتشكوفسكي نفسها العالمة بالكتابات القديمة .

وزد على ذلك مؤلفاً ظهر سنة ١٩٥٠ تحت عنوان « دروس في تاريخ العربية في روسيا » (٢٨٨ ص. موسكو — لينينغراد ، بالروسية) — فبعد مقدمة هذا الكتاب (ص ٥ — ٩) ، يوجد بحث مخصَّص « لما قبل تاريخ العربية في روسيا » حتى اواخر الجيل الثامن عشر يبحث فيه المؤلف عن كل الدروس التي لها علاقة بالعربية تلك التي ازدهرت في كياف وموسكو وبطرسبرج . اما موضوع الكتاب فيقسم الى قسمين :

١) العربية في روسيا (ص. ٧٣ — ١٩٨) اي قبل الثورة السوفياتية .

٢) العربية في الاتحاد الروسي الاشتراكي السوفياتي من ١٩١٧ الى ١٩٤٨ (ص : ٢٠١—٢٦٩) مع تعليق وفهرست (ص ٢٧٣—٢٩٨).

وقد اهدى هذا الكتاب «الى ذكرى مرور مائة سنة (١٨٤٩ — ٥ اذار ١٩٤٩) على مولد المستشرق « فيكتور رومانوفتش روزن » مؤسس المدرسة الجديدة للدروس الشرقية قبل الثورة ، ذلك الذي احبَّه مار (Marr) ، وبرتولد والدنبورغ (Oldenbourg) ، وكركوتسوف (Kokoutsov) وتثقفوا عليه .

لا شك في ان بطلَي الاستشراق العربي في روسيا كانا فران (Fraehn) في النصف الاول من الجيل التاسع عشر (١٧٨٢ — ١٨٥١) والبارون روزن في النصف الثاني منه (١٨٤٩ — ١٩٠٨) — ولكن عندما يذكر كراتشكوفسكي اسماء تلاميذ هذين العالمين يهل اسمه الذي له حق الصدارة. ويكفي ان نلقي نظرة على تعليق المصادر في اخر الكتاب (٢٧٣ — ٢٧٩)

لنتيقن من انّ مؤلفات كراتشكوفسكي ذاته لها المكان الاوسع : فهو ذاته المؤرّخ الكبير للدروس الشرقية وخصوصاً العربية منها في اللغة الروسية.

ولا بدّ لنا من كلمة عجلى في اطروحة كراتشكوفسكي في جامعة بطرسبرج ، اذ انها قد أثارت انتباه العصر حينذاك وموضوعها : « ديوان ابي الفرج محمد بن احمد الغساني الملقب بالوأواء الدمشقي ٣٩٠ هـ ٩٩٩ م. » (بتروغراد ١٩١٤ — ١٩٢٤ — ١٥٣ صفحة من النص العربي و٣٧٨ صفحة بالروسية). ولم يعجب العلماء بالدقة التي رافقت طبع الثلاثمائة والعشرين مقطوعة شعرية للوأواء بقدر ما اعجبوا بالدراسة التي رافقتها وعنوانها : « لوازم الإبداع الشعري » حيث حلّل كراتشكوفسكي تكنيكية مهنة الشعراء في عصر الحمدانيين في حلب ، عصر المتنبي. (راجع الاب شيخو في المشرق ١٢/١٩٢٤ ص ٤٧٥).

◆

وهناك مؤلف آخر لكراتشكوفسكي لا شكّ في ان قراء هذه المجلة يهتمون له. وهو كتاب صغير الحجم لم تمض على نشره بعض سنوات الّا وصحّح واعيد النظر فيه وطبع ثلاث مرات متواليات. ولقد نشرنا في « شذرات جامعة القديس يوسف » (٢٦/١٩٤٤ — ١٩٤٦/ص ٩—١٣٨) كلمة من درس طويل عنه بمناسبة طبعه للمرة الثانية. وعنوان وهذا الكتاب : « فوق المخطوطات العربية » يوحي لنا الشيء الكثير . ونفضّل على هذه الترجمة الحرفية لكلمات العنوان الاولى ترجمةً اخرى تعبّر عن فكرة الكاتب : « انحنا. على المخطوطات العربية- ذكريات كتب واشخاص. » نشرته اكادمية العلوم السوفياتية — موسكو — لينينغراد — الطبعة الاولى : ١٩٤٥ — والثانية : ١٩٤٦ ، ١٧٠ ص — والثالثة : ١٩٤٨ — عدد الصفحات ٢٠٢ مع ١٣ رسماً منفردًا —).

عندما ظهر الكتاب في طبعته الاولى سنة ١٩٤٥ كان يحوي خمسة فصول كُتبت اثناء الحرب من ١٩٤١ الى ١٩٤٣ بعيدًا عن المكاتب العمومية وعن مكتبة المؤلف الخصوصية التي كان قد نقلها الى صناديق حرصاً منه عليها .

اذاً فقد كان من المستحيل عليه ان يراجع المصادر . ولكن لما نقلّص الحرب وعاد كراتشكوفسكي من جديد الى الجلوس الى « الكتب والمخطوطات ، اصدقائه القدماء الاعزاء » زاد على كتابه فصلين جديدين (الثالث والسابع) ظهرا في الطبعة الثانية سنة ١٩٤٦ ، ولم تلبث الطبعة الثالثة ان ظهرت نظراً للنجاح الذي لاقاه الكتاب . واننا حين نعرضه الان نذكر صفحات الطبعة الثانية وبين هلالين صفحات الثالثة .

فالسبعة فصول التي تؤلف الكتاب هي بالاحرى « تذكارات » سبع ، متنوعة الالوان . فهي حيناً فنية ، واحياناً تعنى بسرد اخبار وتخطيط رسومه ، أملتها البساطة والعذوبة . فاذا بها تجمع حول مراكز الدروس العربية وتحت عناوين غامضة معلومات جزيلة النفع عن الكتب والمخطوطات والعلماء حتى وعن افراد الناس العاديين كاولئك القرويين اللبنانيين مثلاً الذين حظي الكاتب الروسي بمعاشرتهم مدة رحلته العلمية الى الشرق . ولقد استدرك هو الامر بذاته فقال ان في كتابه « كثيراً من العاطفة والشعر . » ولكي نعلم انه قال الصواب يكفي ، على ما اعتقد ، ان نقرأ المقطوعة الاخيرة من الفصل الاول التي خطّها سنة ١٩٤١ — حيث نستمع الى الحوار بينه وبين مولاته المخطوطات . ولا يخشى كراتشكوفسكي في هذا انتقاداً لانه يعيش الآن بالتذكار كتابهُ ويلقيه بين يدينا كما عاشه يوماً بعد يوم مدة اربعين سنة « انحناء » على المخطوطات العربية . » وهذه بالمجاز ، عناوين ومحتويات تلك التذكارات السبع .

يدور الفصل الاول ص ٧ — ١٤ (٩ — ١٧ من الطبعة الثالثة) حول مخطوطات مكتبة جامعة بطرسبرج تحت اشراف ا . ا . بتشكوف (Btchkov) المدير الشهير (١٨٥٨ — ١٩٤٤) ويخبرنا عن علاقاته بالمخطوطات العربية منذ ١٩٠١ حتى يومنا الحاضر . وفيه ايضاً إلماع الى مخطوطة من الخوري انطون البغدادي في الجيل التاسع والى مخطوطتين اخريين من كمال الدين (الجيل الثالث عشر ثم الخامس والسادس عشر) مع بعض تعليقات على ابي العلاء المعري ، ثم يتكلم عن شخص لبناني الاصل من الجيل التاسع عشر ، اسمه رزق‌الله حسون ،

المعروف بجنكته ودرايته السياسية وخصوصاً بنسخه لمخطوطات ثمينة.

اما في الفصل الثاني ص ١٥ — ٣٧ (١٨ — ٤٤) فيتكلم كراتشكوفسكي عن « تشرّده في الشرق » (بين بلدان الشرق) وقد دام سنتين ١٩٠٨ — ١٩١٠ م. ويمتد الحديث بالكاتب في هذا الفصل حتى سنة ١٩٣٢ . ويفيض حديثه ابتهاجاً وسروراً حين يتكلم عن اقامته في لبنان وخصوصاً عن تمضيته فصلي الشتاء في جامعة القديس يوسف التي هي ، كما يقول ، نصف فرنسية ، ونصف عربية . » فيرسم لنا بجمل صارخة اللهجة شديدة الصدق ملامح اساتذته القدماء في المعهد الشرقي التابع للجامعة . فليُسمح لنا بترجمة بعض اسطر منها : « لامنس ، مؤرخ لامع ، محاضر ذو وقع ، بلجيكي الاصل . رونزفال الفرنسي مدرّس اللهجات الشرقية بدقة ، يجمع كنزاً ضخماً من الفكاهات ، ولكنه فريسة الم داخلي مستمر . بقي الصديقان المجانبان دائماً : شيخو وصالحاني . فالاول مرديني الاصل من بلاد ما بين النهرين العليا ، بطيء في الظاهر ولكنه ذو مزاج سريع وترحيب بشوش ، يحمل في يديه دائماً ملفات مطبعية من « المشرق » . مغموس كالاسفنجة في الادب العربي . دائماً على استعداد ليجيب بتقالٍ على كل سؤال . وصالحاني : وجه شاميّ مهيب ، له معرفة دقيقة بالشعر « والف ليلة وليلة » . قد يتابع حتى التسعين من عمره بجونه المتعلقة باشعار عزيزه الاخطل رفيق يوحنا الدمشقي في صباه . » ويتابع كراتشكوفسكي تخطيط رسومه « اولئك الذين سطعوا كالكواكب بالنسبة الى اسلافهم » ، فيبدأ اولاً بالمستشرقين التربيين الذين مرّوا بالشرق : ليتسبرسكي (Litsbarsky) غوتكيل (Gottkheil) ، نالينو (Nallino) پيترس (Peeters) ، من مؤسسة يولند ، الاوربي الاول الذي سبق فأدرك نبوغ مارّ (Marr) وكان المعجب الكبير بدستويفسكي اذ انه قرأه بلغته الروسية . ثم يتكلم بعد هذا عن الشرقيين : زيدان ، قسطنطين بين ، محمد كرد علي وغيرهم . ويعود باسهاب في هذا الفصل وفي الفصول التالية الى ذكر الاب لويس شيخو والى اثره الكبير في خلق « المكتبة الشرقية » ، والى منشوراته ونظرته الثاقبة في صحة الآثار او فسادها . ويكرّس كراتشكوفسكي فصلاً كاملاً في آخر كتابه عن الاب صالحاني ، سنعود اليه

في حينه. ولا ننسى في هذا الفصل النفي الفائدة كلام المؤلف عن مكتبة بطريرك الشام الارثوذكسي غريغوريوس الحداد ، تلك المكتبة التي ، كما يقول ، انتقلت الى موسكو . فانه ، مدة اقامته في بيروت ، حاول عبثاً ان يسمح له البطريرك الارثوذكسي بالاطلاع على مخطوطات البطريرك مكاريوس وابنه بولس الحلبي ، اذ ان هذه المخطوطات تحوي قصة الرحلة التي قام بها مكاريوس الى روسيا في الجيل الثامن عشر . ولكن عندما اقام كراتشكوفسكي في بطرسبرج كُلف بعرض وترتيب تلك المخطوطات التي حاول ان يطلع عليها في الشام ، وكان البطريرك غريغوريوس الحداد قد قدمها هدية للقيصر.

وموضوع الفصل الثالث ص ٣٨ — ٥٥ (٤٥ — ٦٥ في الطبعة الثالثة) يدور حول « الكتاب العربيين والمستشرقين الروسيين.» وهو واحد من الفصلين الجديدين اللذين زيدا في الطبعة الثانية ، وهذا ما يشرح لنا الاهتمام الذي يبديه اليوم الاتحاد السوفياتي بالعالم العربي . يتكلم فيه كراتشكوفسكي عن كُتّاب العربية المعروفين في لبنان وفي مصر نظير امين الريحاني الذي رجع من اميركا الى بيروت يوم كان فيها الكاتب الروسي . يتكلم عن « الفلاح » الارستقراطي في القاهرة ذي المكتبة الكبيرة محمد تيمور باشا . ويطول ايضاً كلامه عن ميخائيل نعيمه البسكنتاوي الاصل ، الذي عاد من اميركا الى بلاده وكان على مراسلة مع كراتشكوفسكي الذي كانوا يدعونه في لبنان وسوريا وفلسطين « المستشرد الروسي » او « غنطوس الروسي » (اغناطيوس الروسي) . الى ان انتهى به الكلام الى المدارس العديدة التي كانت حكومة القياصرة تنشئها في الشرق الادنى قبل الحرب العالمية الاولى — ويظهر من هذا كله ان هذا الفصل يخالف قليلاً موضوع الكتاب الاساسي.

وينتقل بنا الفصلان الرابع ص ٥٦ — ٧٩ (٦٦ — ٩٤) والخامس ص ٨٠ — ١١٥ (٩٥ — ١٣٧) الى لينينغراد فنسمعه يكلمنا عن المتحف الاسيوي فيها وعن مكتبة الجامعة.

اما الفصل السادس ص ١١٦ — ١٣٦ (١٣٨ — ١٦٥) فيحتوي على

ذكريات تمتد من سنة ١٩٢٨ الى ١٩٤١ . وعنوانه غامض وهذا هو : « نحو الصيّاد الطريدة ذاتيا تسرع . » وهذا المثل الروسي معناه ان الصيّاد الماهر يجد دائماً طريدة يصطادها . وهنا يتكلم الكاتب عن بعض مخطوطات واشيا . ذات قيمة كبرى وُجدت ومصدرها اليمن « بلاد ملكة سبأ » ، وسوغديان ولا ينهي حديثه قبل ان يخبرنا عن كتاب القرآن بالخط الكوفي كان في حوزة عجوز سنة ١٩٣٦ . فحالما اخذت الثمن الذي عُرض عليها انسحبت متخفية لئلا يُشتهر امرها وتُطارَد .

اما الفصل السابع ص ١٤٠ — ١٥٦ (١٦٦ — ١٨٥) الذي هو الاخير في الطبعتين فيحمل عنواناً يدلّ على روح الكتاب باجمعه : «رقات الاجداد.» لقد أفرغ الكاتب من قلبه في هذا الفصل اكثر مما في باقي ذكرياته . في المقطع الاول يذكر كراتشكوفسكي « ريسك (Reiske) المنقطع النظير ، شهيد الادب العربي » (١٧١٦ — ١٧٧٤) الذي كان اول من تنبّه الى كتاب الحماسة للبحتري ، ويذكر ايضاً الاب لويس شيخو « استاذ العربية واستاذه » الذي اعدّ طبع ديوان الحماسة نقلاً عن المخطوطة الوحيدة الموجودة في لايد (Leyde) — وفي المقطع الثاني يحيي تذكار الاستاذين الروسيين الشهيرين : كوركاس الناعم (doux Cuirgas) (١٨٣٥ — ١٨٨٧) والبارون روزن (Rosen) (١٨٤٩ — ١٩٠٨) — ونستطيع ان نقول ان المقطع الاخير هو مكرس لدرس شخص واحد :

عنوان هذا المقطع هو : « نصف جيل مع مخطوطة واحدة » ، خصّصه كراتشكوفسكي كله بذلك الذي جعل من تلك المخطوطة الواحدة موضوع بحوثه ورغباته مدة خمسين سنة ، ألا وهو الاب انطون صالحاني . فيخبر المؤلف عن النشاط الذي بذله الاب صالحاني في خدمة الاخطل الشاعر بالتفاصيل الدقيقة . كان العالم الانكليزي رايت (Wright) يقضي نحبه ، سنة ١٨٩٩ ، دون ان يستطيع سبيلاً الى طبع آثار شاعر بني امية . « اذاك كان الاب صالحاني مشهوراً في العالم العلمي كلغوي متين وعارف دقيق بآثار الادب الوطني » فوقعت بين يديه

النسخة التي نقلها رزق الله حسون الذي تكلمنا عنه سابقاً عن مخطوطة بطرسبرج. فاذا بعمّال المطبعة الكاثوليكية في جامعة القديس يوسف وبأكفائها تتحرك للعمل والطبع ، وارسلت الاوراق المطبوعة في بيروت الى البارون روزن في بطرسبرج ليقابل بين النصين ، اذ لم يكن في ذلك الحين تصوير شمسي ولا إعارة مخطوطات . وهكذا اظهرت الطبعة الاولى في بيروت بسرعة فائقة — وهنا يحلو لكراتشكوفسكي ان يعيد مثله الروسي : « الصياد الماهر يجد ما يصطاده » ، وبالفعل لقد عُثر بعد ذلك على مخطوطات تحوي آثار الشاعر ذاته. ففي سنة ١٩٠٥ نشر الاب صالحاني صورة مخطوطة بغداد طبعاً على الحجر.

وفي سنة ١٩٠٧ طُبعت المخطوطة التي وجدت في اليمن بعناية الدكتور غرفيني (Griffini) في المطبعة ذاتها وبالنوع ذاته — واخيراً في سنة ١٩٣٨ كان الاب صالحاني ، وهو في الحادي والتسعين من عمره ، يكرّس كتيباً تذكارياً بثلاثة وستين صفحة « للمخطوطة الجديدة لديوان الاخطل » التي وجدت في طهران وكان كراتشكوفسكي نفسه قد هدى صديقه القديم اليها . وهنا يفيض المؤلف الروسي بكلام قصصي رائق عمّا قلناه بايجاز ولا يدري ابداً كيف التقى المرة الاولى بالاب صالحاني « ذي العينين الوقّادتين » فيخبر عن علاقاتهما الطويلة ومراسلاتهما العذبة الجميلة بعد ذلك . وعندما اعلنت الحرب الكونية الثانية وانقطعت المراسلات ، ما برح كراتشكوفسكي يظن ان صديقه القديم توفي بعد ان قارب المائة من السنين. ولكن الاب صالحاني ،ذلك العالم المعتبر الجليل القدر ، مات في العاشر من آب سنة ١٩٤١ وهو في الرابعة والتسعين . وعلى كل فالمستشرق الروسي لم يخطأ حين قال عنه انه قضى نصف عمره في ملازمة مواطنه الاخطل ، شاعر بني امية ، وملازمة مخطوطة لينغراد الحاوية اثار الشاعر المذكور.

لقد حافظ كراتشكوفسكي في طبعات كتابه الثلاث على صفحتي الخاتمة التي تحمل عنواناً بحروف لاتينية : « الراحة الدائمة » (Requiem Aeternam) لقد كتبها سنة ١٩٤٣ تذكاراً مؤثراً للموتى . . .

هذه الامثلة الوجيزة التي قدّمناها تكفي لان تعطي فكرةً عن هذا الكتاب الزاخر بالفائدة والحياة . وكم من منافع كان يوسعنا بعد ان نلتقطها خصوصاً عن العلماء الروسيين الذين لم نذكر الّا بعض اسماء منهم . ففي اخر الكتاب ، بجانب الشروح والمصادر ، توجد اسماء اعلام واسماء كلمات عربية مقرونة بتعليقات ترمي الى افادة عددٍ اكبر من القراء باللغة الروسية .